

أبو العلاء الحسيني سلطان العلماء



وفد من مكة المكرمة بعد أن وُلد فيها وعاش مقتبل حياته، ليعيش في مصر بقية سنوات عمره، حتى جاوز المائة عام. ويتنسب إلى آل البيت النبوي الشريف، فهو من أحفاد الإمام على بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنهما، وكان من الفقراء إلى الله، وليس إلى عباده. . . هؤلاء الفقراء الذين يعرفون في كل زمان ومكان بالأولياء الصالحين. اختار لنفسه مكاناً هادئاً على النيل بعيداً عن صخب الحياة الدنيا وضوضائها ليقوم عليه مبنىً صغيراً يتخذ له لا يبرحها أربعين عاماً. . . وعلى الرغم من ذلك فيتزاحم حول هذه الخلوة المريدون والأتباع. . . ليكون مجموعهم فيما بعد أهالي حى «بولاق أبو العلاء» بمدينة القاهرة.

ذلك هو العارف بالله السلطان أبو العلاء. . . الذى ذكره الإمام الشعرانى فى طبقاته فقال عنه: «كان رضى الله عنه من أكمل العارفين، وأصحاب الدوائر الكبرى، وكان كثير التطورات، ومكث نحو أربعين سنة فى خلوة مسدود بابها، ليس لها غير طاقة وكان من لا يعرف أحوال الفقراء يقول: هذا كيماوى سيموى، وكان رضى الله عنه بريئاً من جميع ما فعله أصحابه من الشطح الذى ضربت به رقابهم فى الشريعة».

وتستوفنا فى هذه الكلمة الدالة للإمام الشعرانى عن السلطان أبى العلاء أمور كثيرة، فى مقدمتها ثلاثة.

الأمر الأول: حول مسألة أنه عاش فى خلوة أربعين عاماً قضاها فى التعبد والبعد عن الناس ليتفرغ تماماً لعبادة الله وطاعته، أملاً فى أن ينزله الله منزلة

أوليائه الصالحين وينال درجة من درجات أحبائه المكرمين . والحق أن هناك وسائل للتقرب من الله غير الاعتزال عن الناس والاستغراق تماماً في العبادة فكما عرفنا أن الولاية ليست في مجموعها اعتزال وخلوة، ولكنها أيضاً عبادة وعمل، ذلك لأن العمل يمثل في شريعة الإسلام جانباً لا يُستهان به من عبادة الله، ولولا أن السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين وتابعي التابعين عملوا وكافحوا وجاهدوا بل وقاتلوا في سبيل الله . لما قامت للإسلام أمة، هي خير أمة أخرجت للناس، فلو أن هؤلاء - رضوان الله عليهم - اعتزلوا الحياة، وعاش كل منهم في خلوة ببقية سنوات عمره، لَمَّا وصل الإسلام إلى ما وصل إليه من المدنية والحضارة.

لكن على أي حال لكل ظروفه . وربما كان الاعتزال والخلوة هما الوسيلة المثلى في عصر هذا الرجل الصالح .

والأمر الثاني: أن السلطان أبا العلا كان غير مسئول عمّا يفعله بعض المتهوسين والمجازيب من أتباعه، ممن يأتون بأعمال بعيدة كل البعد عن التفكير العقلي، وإلا فما معنى أن نرى حتى اليوم البعض يضم قبضته على الهواء ثم يخفي هذه القبضة في ملبسه ليخرجها بعد ذلك ويفردها ولا شيء غير ذلك؟! إن كل ما يصدر عن هؤلاء بعيد عن العقل . وكتاب الإسلام - القرآن الكريم، وهو كتاب للعقل، ودعوة صارخة لتحرير العقل من عقاله - يدعونا بعبارات تختلف في أسلوبها، وتتفق في معناها إلى استعمال العقل، ووزن كل شيء بميزانه . . وعلى هذا فكل ما لا يأتي عن طريق العقل، أو ما لا يحكمه العقل لا يعتد به . . فالعارف بالله السلطان أبي العلا برئ منه، وغير مسئول عنه، لأنه كان أعرف من هؤلاء وهؤلاء بتعاليم الإسلام، ومنها أن التفكير الصادر عن العقل يعد فريضة إسلامية .

الأمر الثالث: الذي نلاحظه في كلمة الإمام الشعراني عن العارف بالله السلطان أبي العلا: هو اعتباره من الفقراء، وهذا حق وصدق، فالعارف بالله - وهو من الصوفية - يعد من الفقراء إلى الله، وليس إلى عباده، فالفقير إلى الله هو من يقبل على الله باطناً وظاهراً بأنواع القربات والعبادات، ويعتمد عليه سبحانه وتعالى، ويتوكل - دون أن يتوكل - في أمر دنياه .

وهذا المعنى الذى سجله الإمام الشعرانى فى طبقاته عن السلطان أبى العلاء . . لا يختلف كثيراً عن المعنى الذى سجله الأستاذ توفيق على حسن فى كتابه عن هذا الرجل الصالح حيث قال: «إن السلطان أبى العلاء الحسينى رضى الله عنه، من العبّاد الزاهدين، والنُّسَّاك العارفين . . وصل فى المعرفة إلى درجة عالية، وفى الولاية إلى مكانة سامية . . أفاض الله عليه بكثير من أسراره، وخصه بوافر بره ونفحاته . . . اعتزل الناس ليتفرغ لعبادة ربه وخالقه، مكث أربعين سنة فى خلوته، وليس بالخلوة نوافذ غير طاقة يأتيه منها أكله وشربه بواسطة أتباعه ومريديه، وذلك ليتعد عن شرور الخلق، ومظالم الناس . عاش رضوان الله عليه عمراً يزيد على المائة والعشرين عاماً . . قطعه كله فى طاعة الله وعبادته، فأكرمه الله بمنزلة أوليائه، ودرجة أحبائه، والله يصطفى من يشاء من عباده، ولا حرج، ويهب من يريد أسراره، ولا مانع . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شئ قدير» .

والكتابات الحديثة التى سجلت تاريخ حياة هذا الرجل الصالح تذهب إلى أنه ولد بمكة، ولكنها لا تذكر السنة التى وُلد بها، وإنما نكتفى بالقول أنه وُلد فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى، وأنه عاش مائة وعشرين عاماً، وتذكر أنه توفى فى عام ٨٩٠، أو عام ٨٩٥ للهجرة .

وكما لا تحدد هذه المصادر سنة الميلاد أو تاريخ الوفاة فإنها لا تحدد أيضاً السنة التى نرح فيها إلى مصر، ولا كيفية وصوله إلى عاصمتها، ولماذا اختار المنطقة التى بنى عليها خلوته والمعروفة الآن بببلاق .

ولكن هذه المصادر قديمها وحديثها تتفق على أن السلطان أبى العلاء عاش المرحلة الأخيرة من حياته فى مصر، وتتفق أيضاً على أنه من آل بيت النبى ﷺ، وأن اسمه الحقيقى المسجل على ضريحه هو «الحسين أبو على» . . الذى ينتهى نسبه إلى الإمام الحسين، ابن الإمام على والسيدة فاطمة الزهراء، رضى الله عنهم أجمعين، وأنه اختار مصر كغيره من العلويين طلباً للأمن والاستقرار، ورغبة فى العلم والمعرفة، حيث التقى فيها بعلمائها وأئمتها، وأخذ عنهم الكثير .

كذلك تتفق بعض الكتابات فيما بينها فترى أنه حل بمصر في الأربعين من عمره، وأنه توفي في العشرين بعد المائة، أى أنه بقى في مصر ثمانين عاماً. قضى منها أربعين عاماً - هى الأخيرة من حياته - معتزلاً في خلوته.

وأنه من النبتة الشريفة المباركة التى نذرت نفسها لعبادة الله والدفاع عن دينه الإسلام.

وأن السلطان أبا العلا مدفونٌ بضريحه الموجود بمسجده ببولاق فى القاهرة، كما يسجل على مبارك فى خططه التوفيقية فى حديثه عن هذا المسجد والضريح قائلاً: «وبداخله ضريح سيدى أبى العلا الحسينى» وفى كل عام يُقام له مولد أمام هذا المسجد، يفد إليه المريدون والأتباع من كل أقاليم مصر، تقديراً لما لهذا الرجل الصالح فى نفوسهم من الإعزاز والتقدير.
